الطريق إلى الله

للأستاذ السيد محمد الحافظ التيجانى

أساس طريق الله هو مافى الحديث القدسى فيما رواه البخارى فى صحيحه : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب عبدى إلى بشىء احب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها »

ففى الحديث التحذير من معاداة أولياء الله ، والترغيب فى موالاتهم وفيه تفصيل مراتب القرب من الله عز وجل .

فالمرتبة الأولى : القيام بما افترضه الله على المكلفين ، وهو أداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات وهذا هو أول مقام ، وهو الأساس الأول للسير فى الطريق الموصل إلى القرب الأعلى من الله عز وجل فإن القرب مراتب .

والمرتبة الثانية : التقرب إلى الله عز وجل بنوافل الخير — بعد الواجبات — وهى كثيرة مبينة فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من صلوات غير الصلوات المفروضة ، والصيام والصدقة والحج والبر والذكر والعفو وحسن المعاملة ، وسلوك الأحسن فى الأقوال والأفعال والأحوال حتى فى الخصومة « ادفع بالتى هى أحسن » فإن الدفع بما هو حسن جميل ، وأجمل منه الدفع بالتى هى أحسن ، وهذا من المندوبات المقربة إلى الله

ونوافل الخير ليست بواجبة ، ولكنها سنن ومندوبات ولا تصبح واجبة إلا بالنذر على شروطه المبينة فى كتب الفقه ، والخلاف فيها معروف ومن سار على وجه مشروع فى مذهب من المذاهب المتبعة فلا حرج عليه بلا خلاف بين العلماء ، وللمندوبات أثر بين فى النفس ، والحرص عليها لايكون الا نتيجة لنور فى القلب وقد جعلها الله عز وجل متممة لما فى الفرائض من نقص .

والشرع لم يلزم أحدا بشىء معين

من نوافل الخير ، ولكنه ترك للمسلم اختيار ما يستحسنه منها — وكلها حسن . وثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الفرائض هل علىّ غيرها ؟ قال لا إلا أن تطوع وسواء استحسنها لنفسه ، أو استشار ناصحا أمينا فأرشده إلى بعضها . وهذا المرشد له أجر الدلالة على الخير ، ولا ينقص من أجر العامل شيء .

ومن يريد أن يمنع أن يرشد مسلم مسلما إلى خير فأخشى أن يكون ذلك حسدا منه ليحرم ذلك المرشد من أجر الدلالة على الخير ، وهى من أصول الشرع والأمر بالمعروف والتعاون على البر والتقوى . والحسد من أخلاق إبليس ، وبسببه طرد من رحمة الله إلى الأبد .

ولا يزال العبد يتقرب - كل يوم يزداد قربا من المولى عز وجل ، ويزداد حضورا ومراقبة وبعدا عن مواطن الغضب الالهى ، وتخلقا بالحياء من الله عز وجل ورعاية لجلاله ومعرفة لكماله ، حتى يصل إلى مقام المحبوبية وهى المرتبة العليا .

ومرتبة النهاية (حتى أحبه) فاذا أحبه الله تولى أمره ، فأحاطه برعايته الخاصة والحفظ الذى وقى به أهل الخصوصية من أوليائه المحبوبين . وقوله تعالى فى الحديث القدسى . « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » لا يحتاج مسلم فى فهمه إلى بيان أن الله عز وجل منزه عن أن يحل فى شيء من خلقه لأنه من الأوليات التى لا يصح الإيمان إلا بها ، ولكن معناه فى الأسلوب العربى أن تظهر آثار عنايته على جوارح العبد نتيجة للنور والفرقان الذى أنار الله به قلبه .

فالبداية التوبة المشروعة فى الكتاب والسنة ، والنهاية وعلمناه من لدنا علما وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . فيكون وارثا من ورثة أحوال النبيين والعلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم ، وأعلى العلم معرفة المحبوبين لربهم عز شأنه .

هذا بيان مجمل لمنازل السير من مقام (يحبونه) إلى مقام (يحبهم) « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى حديثة الشريف مقامات الدين : الإسلام والإيمان والإحسان .

فمقام الإسلام : ما يختص بالظاهر من النطق بالشهادتين — الذى يدل على أن العبد مصدق بقلبه بوحدانية الله عز وجل وبكل ما جاء به رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — والقيام بالواجبات كلها والانتهاء عن المحرمات كلها .

وأما الإيمان ، وهو مختص بالقلوب ، أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

والاحسان ، أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ومن العلماء من اشتغل بمقام الإسلام، وهو تحرير الأحكام الظاهرة من صلاة وصيام وزكاة وحج ومعاملات وحلال وحرام ونحو ذلك وهؤلاء سموا فقهاء .

ومنهم من اشتغل ببيان الإيمان الصحيح وجب العقائد الفاسدة والشبه وهؤلاء سموا علماء التوحيد .

والعلماء الذين اشتغلوا بمقام الإحسان، وهو عبادة الله مع حضور القلب وذكر جلالة الله وعظمته ، والاستدامة على ذلك حتى كأنه يرى ربه عز وجل ، وهذه منزلة تحتاج إلى تهذيب وتزكية النفس وترويضها على مراقبة مولاها عز وجل هؤلاء هم علماء — مقام الإحسان الذين سماهم السلف الصالح الصوفيه .

ولا بد لأهل الإحسان من أحكام مقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، إذ لا يمكن للمرء أن يصل إلى درجة عليا إلا إذا تمكن مما دونها .

قال تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

فإذا كان المرء متصفا بعدة نقائص كالجهل والشح والجبن والطمع والاثرة والأنانية وما إلى ذلك من مساوىء الأخلاق ، ثم تعلم ، فالعلم يرفع منه نقيصة واحدة هى الجهل وتبقى النقائص الأخرى تحتاج إلى رياضة وتهذيب بالوسائل التى تتعاون مع العلم فى التغلب عليها والتخلص منها ، والتحلى بالفضائل .

ومن انجع الوسائل فى ذلك ، الصحبة الصالحة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح كصاحب المسك ومثل الجليس السوء كنافخ

الكبير ، الحديث. وما الطريق إلا هذه الصحبة ، وهو علم تلقاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه واسلم عنه صلى الله عليه وسلم .

وقد كان علماء السلف رضوان الله عليهم يقدمون الاشتغال بعلوم الأحكام الشرعية ثم ينتهون بعدها إلى هذا التهذيب الروحى — علم تزكية النفس ـ وهذا هو العلم الذى تخصص فيه الصوفية رضوان الله تعالى عليهم ، وكتبوا فى نقائص النفس وكيفية التخلص منها . وقد كتب الغزالى فيه ربع المنجيات وربع المهلكات من كتابه أحياء علوم الدين كما كتب غيره — وكتب الصوفية كلها تدور على هذا المحور.

فليتنا سلكنا هذه السبيل النيرة التى تحفظ على العلماء كرامتهم (فالمصيبة على الأمة العالم الذى لا يعمل بعلمه) . وإذا ذاك يكثر فى الأمة العلماء العاملون الذين يستنار — بنورهم ويضيئون بالأخلاق الفاضلة للأمة سواء السبيل .

وفى العدد القادم إن شاء الله سنتحدث عن الشبهات التى أثارها خصوم التصوف حوله ثم نمضى بعد تفنيدها فى الحديث عن الطريق إلى الله

وأول شبة اعترض بها المعترضون أن اسم الصوفية لم يكن موجودا فى زمن الصحابه رضوان الله عليهم .

الصوفية هم أهل السنة

قال ذو النون المصرى : « من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته » .

وقال الحارث المحاسبى : « من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص زين الله ظاهرة بالمجاهدة واتباع السنة » .

وقال أبو يزيد البسطامى : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .